

اشكالية التوجه والتحيز في دراسة التاريخ العثماني

من خلال كتاب "أم القرى" لعبد الرحمان الكواكبي

أ. مساعد محمد علي

د. حميدي ابو بكر الصديق

جامعة محمد بوضياف المسيلة - الجزائر

جامعة محمد بوضياف المسيلة - الجزائر

الملخص:

تعتبر صورة الإمبراطورية العثمانية في فكر وكتابات معظم المصادر التاريخية العربية السبب الرئيسي للتخلف الثقافي الذي أصاب العالم العربي في العصر الحديث. لا يستند هذا الادعاء على الحقائق التاريخية بل على الانحياز الواضح ضد الدولة العثمانية، التي نجحت إلى حد كبير في حماية الأمة العربية من المضايقة والاستعمار الأوروبي الحديث. وقد أدت هذه الكتابات إلى ظهور تيار إيديولوجي يرفض الوجود العثماني، معتبراً إياه واحداً من أشكال الاحتلال التي يجب القضاء عليها.

يعتبر كتاب "أم القرى" لمؤلفه عبد الرحمن الكواكبي أحد أبرز هذه النماذج المتحيزة في دراسة الإمبراطورية العثمانية، وهذه محاولة لإظهارها من خلال إظهار التحيز في كتاب الكواكبي والإشارة إليه، إلى الأخطاء والتحيز التاريخي في كتابه أم القرى.

الكلمات المفتاحية: التحيز، التاريخ، الدولة العثمانية، عبد الرحمان الكواكبي، أم القرى، البلاد العربية.

Abstract :

The image of the Ottoman Empire in the thought and writings of most Arab historical sources is considered to be the main cause of the cultural backwardness that afflicted the Arab world in modern times.

This claim is based not on historical facts but on a clear bias towards the Ottoman state, which succeeded to a great extent in protecting the Arab nation from harassment and modern European colonialism.

These writings have led to the emergence of an ideological stream rejecting the Ottoman presence, considering it to be one of the forms of occupation that must be eliminated. The book Umm al-Qura by Abdel-Rahman al-Kawakibi is one of the most obvious of these biased models in the study of the Ottoman Empire, and this is an attempt to show by showing the bias in the book Al-Kawakibi and referring to the errors and historical bias in his book Umm Al-Qura.

Keywords: prejudice, history, the Ottoman Empire, Abderrahmane Kawakibi, Umm al-Qura, the Arab countries.

المقدمة:

ثمة ادعاء مفاده أن الدولة العثمانية التي حكمت الاقطار العربية بداية من عام 923هـ/ 1517م ولعدة قرون كانت السبب الرئيس في التخلف الحضاري الذي أصاب العالم العربي، وأن أحد أهم منجزات الحملة الفرنسية التي احتلت مصر أواخر القرن الثامن عشر الميلادي هو القضاء على العزلة والتخلف الذي أصاب العالم العربي تحت حكم العثمانيين.

وهذا الادعاء لا يستند إلى حقائق تاريخية ثابتة، بل ينطلق من تحيز واضح تجاه الدولة العثمانية التي نجحت إلى حد بعيد في حماية العالم العربي، وصون مقدساته من الهجمة الإسبانية البرتغالية، كما أنها أخرت الاحتلال الفرنسي الإنجليزي للعالم العربي حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي،

وهذا التحيز يرجع في رأينا إلى عدة أمور:

أولاً: موقف الغرب المعادي بشدة للدولة العثمانية، والذي أنتجته الفتوحات العثمانية في أوروبا التي امتدت منذ نشأة الدولة عام 699هـ/1299م، وحتى عام 936هـ/1529م تاريخ حصار السلطان سليمان القانوني لمدينة فيينا عاصمة النمسا في قلب أوروبا.

وقد شكلت تلك الفتوحات موقفاً معادياً للدولة العثمانية المسلمة في الذهنية الغربية، حتى أن كلمة Turk أصبحت مرادفاً لكلمة مسلم في تلك الفترة. وذلك لأن أوروبا لم تعرف مواجهة الإسلام على أراضيها إلا في عهد الدولة الأموية في القرن السابع الميلادي، وذلك عندما نجح المسلمون في فتح شبه جزيرة ايبيريا، وتأسيس دولة الأندلس بها. ثم ما لبثت أن شعرت بذلك الخطر الجديد القادم من الشرق هذه المرة والمتمثل في الدولة العثمانية يدهمها بعنف بداية من القرن الرابع عشر، حتى أن الدولة العثمانية نجحت في عام 857هـ/1453م في القضاء على الدولة البيزنطية، والتي استعصت على الفتح طوال ثمانية قرون. وهي بذلك كانت تختلف عن دولة الخلافة الراشدة والدولة الأموية التي نجحت في

القضاء على الإمبراطورية الفارسية، والاستيلاء على مستعمرات الدولة الرومانية في مصر والشام، وإن لم تنجح في القضاء بشكل نهائي على الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تمثل الجناح الشرقي للمسيحية في العالم في ذلك الوقت.

وقد أثر ذلك الموقف المعادي والرافض للدولة العثمانية على موقف المؤرخين والمستشرقين الغربيين في تناول ودراسة تاريخ تلك الدولة، وانعكس هذا الأمر بدوره على العرب والمسلمين الذين تعلموا على يد هؤلاء المؤرخين والمستشرقين، ثم أصبحوا أساتذة وكتاب يحملون نفس النظرة المتحيزة الرافضة، بل والمعادية لتلك الدولة العثمانية.

ثانياً: نمو الفكر القومي عقب الثورة الفرنسية، والذي امتد إلى الشرق المسلم وظهرت تجلياته عند العرب في مفهوم القومية العربية، وعند العثمانيين في مفهوم القومية التركية أو الطورانية.

وقد تسبب هذا الفكر في ظهور تيار رافض للوجود العثماني، معتبراً أنه يمثل إحدى صور الاحتلال التي يجب التخلص منها، شأنه في ذلك شأن الاحتلال الفرنسي والإنجليزي. وقد بلغ هذا التيار ذروته مع تولي حزب الاتحاد والترقي-الذي حمل أفرادها تلك القناعات- لمقاليده الحكم في الدولة العثمانية في عام 1327هـ/1909م. مما أدى في نهاية الأمر إلى اشتراك العرب مع القوات الأجنبية في قتال الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وقد أدت تلك الأحداث إلى مزيد من التحيز في دراسة تاريخ الدولة العثمانية.

والواقع أن كل هذه الأسباب مجتمعة قد أدت إلى حدوث تحيز لا تخطئه العين في دراسة تاريخ الدولة العثمانية، وقد ظهر هذا التحيز واضحاً في كتابات عدد من المفكرين العرب مما انعكس سلباً على الوعي الجمعي لغالبية الشعوب التي خرج منها هؤلاء المفكرون، وشكل ذهنية جامعة تتقبل تاريخ دول حكمت مصر والعالم العربي مثل الدولة الإخشيدية والطولونية، رغم عدم أهميته البالغة، وترفض حتى مجرد الحياد تجاه تاريخ الدولة العثمانية رغم ما به من إنجازات وفتوحات، بل وتقترن الدولة العثمانية في تلك الذهنية بكل ما هو سلبي.

ولعل كتاب (أم القرى) للأستاذ عبد الرحمن الكواكبي ⁽¹⁾ يشكل أحد أوضح هذه النماذج المتحيزة في دراسة الدولة العثمانية. فهذا الكتاب الذي صدرت طبعته الأولى عام 1316هـ / 1898م في القاهرة على نفقة محمود أفندي طاهر صاحب جريدة العرب، كان يتحدث: "عن تأسيس جمعية دينية تسمى جمعية (أم القرى) تكون معنية بأمر النهضة الدينية، على أن يأتي الانتظام السياسي تبعا للدين، وتعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلية الدينية بل الكلية الشرقية، على أن تربط آمالها بالجزيرة العربية لأن لجزيرة العرب ولأهلها بالنظر إلى السياسة الدينية مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر لغيرهم، وأن حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقاً، وأن انتظار ذلك من غيرهم عبث محض" ⁽²⁾.

والواقع أن مسألة الخلافة العثمانية كانت النقطة الأبرز في مجموعة التحيزات التي وردت في هذا الكتاب فقد دعا الكواكبي إلى: "جعل الخلافة عربية وإلى تنصيب خليفة عربي في مكة المكرمة على أن يكون حكم الخليفة سياسة مقصورا على الخطة الحجازية، وأن لا يتدخل هذا الخليفة في شيء من الشؤون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات قطعيًا. ولهذا الخليفة أن يصدق على توليات السلاطين والأمراء التي تجري احتراماً للشرع على حسب أصولهم القديمة في وراثتهم للولاية. وأن أفضل وسيلة للعثمانيين لتجديد حياتهم السياسية هي اجتماعهم مع غيرهم على خليفة قرشي" ⁽³⁾.

والواقع أن رأي الكواكبي في تلك الفترة كان رأياً جديداً في العالم الإسلامي وغرباً على الحس الإسلامي ⁽⁴⁾ " إذ لم تكن شرعية الخلافة العثمانية محل خلاف في تلك الفترة المبكرة. فقد كان العرب خاصة ينظرون إلى الخلافة العثمانية نظرة تقدير واحترام فنجد الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر يصف الخلافة العثمانية فيقول إن: "الله قد أيد بروحه هذه العصاة الإسلامية الجيلة من آل عثمان، فأيدت الدين ومكنته، وأنعشت الإسلام وقوته، وأحييت الخلافة" ⁽⁵⁾ كأحسن ما تكون عزا وشانا وجاها وسلطانا، وقاتلوا دونها أعداء الإسلام أعواماً وأعواماً، وأهرقوا في ذات الله دماء ودماء، وحفظوا للإسلام المواطن المقدسة

مكة، والمدينة، وبيت المقدس: مهبط الوحي، ومنزل الملائكة، وقبلة الأمة، وقبور النبيين".⁽⁶⁾

أيضا الأستاذ محمد عبده كان يحترم الدولة العثمانية احتراماً بالغاً حتى أنه قال: "إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثلاثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله؛ فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته وليس للدين سلطان في سواها، واني على ضعفي والحمد لله مسلم العقيدة، عثماني المشرب. وإن كنت عربي اللسان لا أجد في فرائض الله بعد الإيمان بشرعه، والعمل على أصوله، فرضنا أعظم من احترام الخلافة. فإنما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان فإذله محاد الله ورسوله ومن حاد الله ورسوله فأولئك هم الظالمون".⁽⁷⁾

كما أن عبد الله النديم عندما تحدث عن الدولة العثمانية قال: "إننا نري كثيراً من المغفلين يذمون الدولة العثمانية ويرمونها بالعجز، وعدم التبصر، وسوء الإدارة وقسوة الحكام. ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتاً، وأحسنها تبصراً، وأقواها عزيمة لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثماني عشر دولة مسيحية".⁽⁸⁾

ومنهم من كان يري أن وجود الدولة العثمانية ليس ضرورة إسلامية فحسب؛ بل هو ضرورة إنسانية لكل البشر. فقد قال مصطفى كامل في كتابه المسألة الشرقية: "إن بقاء الدولة العثمانية ضروري للنوع البشري، وأن بقاء سلطانها سلامة لأمم الغرب والشرق معاً. وأن الله جل شأنه أراد حفظ بني الإنسان من تدمير بعضهم البعض، ومن حروب دينية طويلة بحفظ سياج الدولة العلية، وبقاء السلطنة العثمانية".⁽⁹⁾

والواقع أن رأي الكوكبي في الخلافة العثمانية قد أدى إلى تكوين تيار إسلامي رافض للخلافة العثمانية في العالم العربي كانت الأمة الإسلامية في غناء عنه في ذلك الوقت، ولعل من أبرز رموز هذا التيار الأستاذ محمد رشيد رضا الذي رأي أن الدولة العثمانية لم يكن لها الحق في أن تكون دولة خلافة مستوفية لشروط الخلافة الشرعية: "ذلك لأن الإجماع على اشتراط القرشية قد ثبت بالنقل والعقل؛ رواه ثقة المحدثين، واستدل به المتكلمون، وفقهاء مذاهب السنة كلها"⁽¹⁰⁾. وغرض من يماري أو يكتم شروط القرشية في

هذا العصر تصحيح خلافة سلاطين بني عثمان، وهذا مالا سبيل إليه عند أهل السنة
المشترطين للقرشية بإجماع مذاهبهم إلا بقاعدة التغلب".⁽¹¹⁾

أما ثاني تحيزات الأستاذ الكواكبي ضد الدولة العثمانية فقد تمثل في قوله: "إن
السلطان الفاتح قد اتفق سرا مع (فرديناند) ملك الأرغون الإسباني ثم مع زوجته (إزابيلا)
على تمكينهما من إزالة ملك بني الأحمر آخر الدول العربية في الأندلس. ورضي بالقتل
العام والإكراه على التنصر بالإحراق، وضياح خمسة ملايين من المسلمين بإشغاله أساطيل
أفريقيا عن نجدة المسلمين. وقد فعل هذا بمقابلة ما قامت له به روميا من خذلان
الإمبراطورية الشرقية عند مهاجمته مكدونيا ثم القسطنطينية".⁽¹²⁾

والواقع أن ما ذكره الأستاذ الكواكبي أمر مختلق لا أساس له من الصحة إذ أنه
من الثابت تاريخيا أن فرديناند تزوج إيزابيلا في عام 873هـ/1469م، وأنهما توليا السلطة
عام 883هـ/1479م، أي بعد فتح القسطنطينية بحوالي 24 عاماً، لأن فتح القسطنطينية تم
في عام 857هـ/1453م. كما أنه من المعروف أن غرناطة قد استسلمت لجيوش الأسبان
في يناير عام 897 هـ / 1492م أي بعد وفاة السلطان الفاتح الذي توفي في عام 885
هـ/1481م. وكل هذه الحقائق التاريخية تدحض زعم الأستاذ الكواكبي الذي سبق ذكره".⁽¹³⁾

أما ثالث تلك التحيزات فهو قول الكواكبي إن: "الأتراك العثمانيين يفتخرون
بمحافظةهم على غيرية رعاياهم فلم يسعوا لاستنتراكه، كما أنهم لم يقبلوا أن يستعربوا، ولا
يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم للعرب".⁽¹⁴⁾

والواقع أن الحقيقة خلاف ذلك فالأتراك العثمانيون لم يستعربوا لأنهم ييغضوا
العرب، ولا يحبون اللغة العربية، بل لأنهم كما يقول الأستاذ محمود شاكر - عند الحديث
عن الأجناس التي لم تستعرب كالفرس والترك وغيرهم من الشعوب الإسلامية - : فقدوا
الأسباب التي أتاحت للبلاد التي صارت عربية خالصة. فمن هذه الأسباب قلة هجرة القبائل
العربية إلى هذه الديار، ونزولها في قراها المنتشرة ومدنها وعواصمها كما نزلت في مصر
والعراق والشام وسائر بلاد أفريقيا، ومن الأسباب أيضا أن شبابها لم يكد يفارق لغة قومه إلى

عربية القرآن حتى جذبته الحواضر الإسلامية الكبرى كبغداد، ودمشق، والفسطاط، ففارق أرض قومه في طلب العلم، وفي طاب الجاه، وفي طلب الثروة والسلطان، فلم تتأصل هناك طائفة تكون لها الغلبة في تحويل اللسان إلى عربي محض".⁽¹⁵⁾

كما أن العثمانيون كانوا يجلون اللغة العربية لغة هؤلاء العرب حتى أن اللغة العربية أصبحت لغة للعلم والتعليم في ذلك الوقت، ولم تستطع أي لغة أخرى منافستها في هذا المضمار حتى اللغة التركية التي كانت لغة الشعب فقد كانت كل الكتب العلمية تقريباً التي تدرس في المدارس العثمانية الأولى مكتوبة باللغة العربية، ومن المحقق أن تلك اللغة قد حظيت بمكانة هامة في برنامج تلك المدارس التعليمية، وأصبحت اللغة العربية في لغة العلم، حتى أن حاجي باشا (ت 819هـ/1417م) اعتذر في مقدمة كتابه (التسهيل) - أحد كتب الطب - وأبدي أسفه واعتذاره، لأنه كتب ذلك الكتاب باللغة التركية حتى يفهمه كل أفراد الشعب، ولم يكتبها باللغة العربية لغة العلم في ذلك الوقت".⁽¹⁶⁾

وقد بلغت اللغة العربية تلك المكانة العالية في المدارس الإسلامية عامة والمدرسة العثمانية بخاصة، لأن الغاية الأساسية للتعليم في تلك الفترة، كانت هي تعليم المجتمع الشريعة الإسلامية بكل جوانبها، لذا كان من الطبيعي "أن تكون اللغة العربية هي لغة المؤسسات التعليمية التي تعد وتخرج الفقهاء والقضاة وأهل الفتوى، الذين يقومون على تحقيق الولاية . ولأن الفقه في الإسلام يستمد أحكامه من القرآن والسنة، لذا كان يلزم لدراسته الإمام الجيد باللغة العربية، للاستفادة من هذه المصادر بشكل مباشر".⁽¹⁷⁾

وقد حظيت اللغة العربية بتلك المكانة الكبيرة في الدولة العثمانية، حتى قبل أن تدخل الولايات العربية تحت الحكم العثماني فالتعليم كانت له تقاليد وطرائق ومؤسسات متشابهة في كل الولايات العربية قبل دخول الحكم العثماني إليها، ولم تكن تلك التقاليد تختلف في الواقع عما كانت عليه في أراضي الدولة العثمانية نفسها، فقد كان التعليم دينياً بالدرجة الأولى. فالدولة العثمانية كانت دولة إسلامية تماثل بنيتها الفكرية البنية الفكرية للولايات العربية التي دخلت في حوزتها، حتى على مستوى اللغة فاللغة العربية التي لم تكن

غريبة عن البنية الفكرية للدولة العثمانية، وكانت تدخل في صلب التعليم في المدارس العثمانية ذاتها". (18)

وقد ظلت الدولة العثمانية حريصة على عدم التدخل في شئون التعليم في الولايات العربية التي دخلت تحت حكمها "فالدولة العثمانية لم تحاول أن تجعل اللغة التركية لغة رسمية في تلك الولايات، ومن ثم بقيت اللغة العربية هي لغة التعليم في الولايات العربية خلال هذه المرحلة، وكان على العلماء العثمانيين القادمين إلى الولايات العربية أن يعلموا ويدرسوا بتلك اللغة". (19)

وقد ظل ذلك الاحترام الكبير للغة العربية حتى قبيل نهاية الدولة العثمانية "فالسultan عبد الحميد الثاني أدخل اللغة العربية على مناهج الدراسة في المدارس المدنية، وشجع استخدام اللغة العربية في المجالات الثقافية والإدارية، وحاول أن يجعل اللغة العربية في مركز مساو للغة التركية كلغة رسمية للدولة". (20)

أما رابع تلك التحيزات فهو قول الأستاذ الكواكبي: " إن التلقب بالخلافة أو الإمامة الكبرى أو إمارة المؤمنين في آل عثمان العظام قد حدث في عهد المرحوم السلطان محمود الثاني (1839.1808 م)؛ حيث صار بعض وزرائه يخاطبونه بذلك تفننا في الإجلال وغلوا في التعظيم، ثم توسع استعمال هذه الألقاب في عهد ابنه وحفيده". (21)

والواقع أن هذا القول تنقصه الدقة إذ أنه من الثابت أن: " السلطان سليم قد أطلق على نفسه لقب (خليفة الله في طول الأرض وعرضها) منذ عام 919هـ/ 1514م، أي قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعها لآل عثمان. فسليم وأجداده كانوا قد أحرزوا مكانة ثلاثم استعمال لقب الخلافة في الوقت الذي كان فيه مركز الخليفة في القاهرة لا يعتد به. كما أن دولة السلطان سليم الأول قد شملت بلادا لم يسبق لأي خليفة أن مارس فيها سلطة فعلية". (22)

كما أن معاهدة (كوجاك قينارجة) التي وقعت بين الدولة العثمانية وروسيا في عام 1187هـ/ 1774م في عهد السلطان عبد الحميد الأول (1774.1789م) قد نصت في

المادة الثالثة منها عند الحديث عن مسلمي التتار على أن: "السلطان العثماني هو إمام المسلمين وخليفة الموحدين، وأن السلطان العثماني يقوم على تنظيم الأمور الدينية لمسلمي التتار طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية".⁽²³⁾

أما آخر التحيزات التي نعرض لها في هذه الدراسة فهو قوله: "إن الدولة العثمانية ما توافقت لنفع الأمة الإسلامية بشيء في عز شبابها بل أخرتها بمحو الخلافة العباسية المجمع عليها وتخريب ما بناه العرب وإفناء الأمة بفتوحاتها شرقي أوربا ومدافعاتها عنه".⁽²⁴⁾

والواقع أن هذا القول أبعد ما يكون عن الحقيقة فالدولة العثمانية قدمت للأمة الإسلامية الكثير على قدر ما استطاعت من طاقة وجهد فقد استطاعت أن تفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في 20 جمادي الأول 857 هـ الموافق 29 مايو 1453م تلك المدينة التي استعصت على الفتح الإسلامي طوال ثمانية قرون وحقت بشارة النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) -ويكفي هذا شرفاً- القائل في حديثه الشريف الذي رواه الأمام أحمد في مسنده قال حدثنا عبد الله بن مُحَمَّد بن أبي شيبه، وسمعتُه أنا من عبد الله بن مُحَمَّد بن أبي شيبه، قال ثنا زيد بن الخباب، قال حدثني الوليد بن المغيرة القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش قال فدعاني مسلمة بن عبد الملك. كما أن الدولة العثمانية قد حمت العالم العربي من الهجمة الشرسة التي كانت البرتغال تعدها للهجوم عليه ويمكن القول: "إن الفتح العثماني قد أنقذ الشرق العربي من توغل النفوذ البرتغالي في المياه العربية بعد فشل المماليك في إبعاد خطره عن المنطقة. فبعد فتح مصر ركز العثمانيون اهتمامهم على بناء قاعدة بحرية في السويس تكون مرتكزاً لهم لضرب البرتغاليين في البحر الأحمر. فقد كان ظهور البرتغاليين في المياه الشرقية يشكل تهديداً لأكثر الدول الإسلامية، وكانت غارتهم على مدن البحر الأحمر الساحلية تهدد سلامة الحجاج إلى مكة، وكان يحق للمسلمين أن يخافوا من ملك البرتغال الذي كان ينوي هدم المدينة المنورة ونبش قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)".⁽²⁶⁾

أيضاً نجحت الدولة العثمانية في أن: تجعل الشواطيء الإسبانية تعيش خطراً دائماً طوال القرن السادس عشر الميلادي وذلك بسبب تهديد المجاهدين العثمانيين الذين كانوا يرون في إنقاذ أخوانهم المسلمين في الأندلس واجباً دينياً. كما أنهم كانوا يعترضون أية قافلة إسبانية البحرية، وكانت البحرية الإسبانية عاجزة عن صد تلك الهجمات وردعها".⁽²⁷⁾

الخاتمة:

وفي الختام كانت هذه بعض التحيزات التي ذكرها الأستاذ الكواكبي في كتابه (أم القرى) والخاصة بالدولة العثمانية والتي نجد أنها تجافي الحقيقة وتبتعد عن الصواب بشكل كبير، ولكن ما الذي دفع مفكر ومصلح كبير كالأستاذ عبد الرحمن الكواكبي لأن تصدر عنه مثل تلك الآراء؟

لعل ما ذكره الأستاذ محمود شاكر في معرض حديثه عن الخلافة العثمانية يفسر لنا مثل تلك الآراء، ويجب على مثل هذا السؤال حين قال: "إن الضعف الذي حل بالخلافة العثمانية في أواخر عهدها واختلاط المفاهيم حتى ضاع الحق في ثنايا الباطل، وأصبح من الصعوبة بمكان أن تفرق بين النية الحسنة والقصد الخبيث. كل هذا جعل بعض الرجال الذين يريدون الإصلاح يرغبون في التخلص من الحكم لما آل إليه، وحلأ بنفسهم التغيير، إلا أنهم وجدوا موقعهم بين دعاة القومية، بل اختلطت عندهم المفاهيم الإسلامية مع العاطفة العربية؛ فتارة يفسرون العربية بالإسلام، أو لا يفرقون بينهما، وتارة أخرى يبدو عندهم الأثر الإسلامي واضحاً، وهم قد عرفوا بذلك وشهد لهم بالصلاح.

وقد استغل دعاة القومية العلمانيون هذا الجانب العاطفي في أولئك فقدموهم وأبرزوا منهم ما يريدون، وأخفوا ما يرغبون فظهروا بالمظهر القومي، وقلدهم الناس، وانطلق موكب القومية يحرك طيبي النفوس ويستغلهم حتى حدث هذا الشقاق، وبرز في ذلك الوقت رجال خلطوا بين العمل الإسلامي والقومي أمثال عبد الرحمن الكواكبي، وعبد الحميد الزهراوي، وشكيب أرسلان".⁽²⁷⁾

الهوامش:

(*) يرى الدكتور عبد الوهاب المسيري: " أن التحيز مسألة حتمية في الخطاب الإنساني، فهو مرتبط ببنية العقل الإنساني ذاتها، لأنه عقل ليس سلبياً أو متلقياً يسجل تفاصيل الواقع كالآلة الصماء دون اختيار أو إبداع، وإنما هو عقل فعال لا يدرك الواقع مباشرة وإنما يدركه من خلال نموذج معرفي محمل بالأسواق والأوهام والأهواء والذكريات والأساطير والمصالح. ولذا فهو يستبعد بعض التفاصيل، ويبقي بعضها الآخر، ويضخم بعض ما يتبقى، ويمنحه مركزية، ويهمش الباقي". انظر، عبد الوهاب المسيري: من أوراق مؤتمر إشكالية التحيز والذي عقد بالقاهرة في الفترة من 19 - 21 شباط / فبراير 1992م (الموافق 15 - 17 شعبان 1412هـ). WWW.elmeSSiri.com

(1) ولد عبد الرحمن الكواكبي عام 1854م في ولاية حلب، والده السيد أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي، وأحد أجداده (إسماعيل الصوفي) مؤسس الأسرة الصفوية الشيعية في تبريز، والتي حكمت إيران قرابة قرن ونصف من الزمان. جاء السيد أحمد بهائي مهاجراً من بلاد فارس إلى حلب، حيث تزوج من سيدة حلبية أنجبت نسل الأسرة الكواكبية، كان علمه واسعاً مما جعل منه حجة في علم الميراث، وأميناً لفتوى الولاية مدة من الزمن، وعضواً بمجلس إدارة الولاية وقاضياً لها. درس عبد الرحمن الكواكبي في المدرسة الكواكبية في حلب، حيث كان أبوه مديراً ومدرساً فيها، فدرس العلوم العربية والشرعية إلى جانب المنطق والرياضة والطبيعة والسياسة، كما أحب قراءة المترجمات عن اللغة الأوروبية، وبعد تخرجه من المدرسة الكواكبية ونيله الإجازات وأعلى الشهادات، اشتغل بالتدريس مدة وكان عمره عشرين سنة. ولما كانت الصحافة وسيلة ومنبراً رفيعاً من منابر الإصلاح، فقد كتب الكواكبي في صحيفة الفرات التي كانت تحرر بالعربية والتركية، وأنشأ صحيفة (الشهباء) مع السيد هاشم العطار، ثم أنشأ جريدة الاعتدال، وواصل فيها تقديم آرائه وأفكاره الإصلاحية. وفي سنة 1879م عين الكواكبي عضواً فخرياً في لجنة المعارف، ولجنة المالية في ولاية حلب، كما عين عضواً في لجنة الأشغال العامة، ثم أخذت أعماله ومسئوليته تمتد إلى العديد من اللجان والمناصب في مجموعة كبيرة من القطاعات، منها تعيينه عضواً في لجنة المقاولات، ورئاسة قلم المحضرين في الولاية، وعضوية اللجنة المختصة بامتحان المحامين. ثم أصبح مديراً فخرياً للمطبعة الرسمية بحلب، ثم الرئيس الفخري للجنة الأشغال العامة ثم دخل إلى ساحة القضاء عضواً بمحكمة التجارة بالولاية بأمر من (وزارة العدلية) العثمانية. عين رئيساً للغرفة التجارية ورئيساً للمصرف الزراعي، ثم عُيِّن رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية بالولاية، وفي سنة 1896م أصبح رئيساً لكل من غرفة التجارة ولجنة البيع في الأراضي الأميرية. رحل إلى مصر واستقر هناك وكتب في كثير من الصحف المصرية والعربية. ساهم في سواحل أفريقيا الشرقية وسواحل آسيا الغربية وبعض بلاد العرب والهند حتى سواحل الصين، وكان في كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعية والاقتصادية في مختلف المجالات. يعتبر الكواكبي رائداً من رواد التعليم، حيث دعا إلى إصلاح أصول تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية وتسهيل تحصيلها والجد وراء توحيد أصول التعليم وكتب التدريس، وقدم الكثير من الأسس لاعتمادها

في مجال التربية والتعليم، ودعا إلى فتح باب محو الأمية، وبين دور المدارس في إصلاح المجتمع. كما ركز على أهمية تعليم المرأة كي تجيد رسالتها في الحياة. كما يعتبر الكواكبي أحد أعلام الحركة الإصلاحية؛ فقد وجه جهوده إلى العمل الأخلاقي، وكافح العادات السيئة والتقاليد البالية، ونقد المعتقدات الفاسدة، وبذل السعي المتواصل لنشر الفضائل والتمسك بها للنهوض بأخلاق المجتمع، فقام بتشكيل الجمعيات والنوادي في القرى والمدن لتقوم بدور التوعية والتنقيف للجمهور، كما رد فساد الأخلاق إلى انحلال الرابطة الدينية والاجتماعية وفقد التناسخ وغياب الأخلاق كان عبد الرحمن الكواكبي واحداً من المفكرين العرب الذين كشفوا عن أسباب الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي، وقارن ذلك بحالة التقدم التي وصل إليها الأوروبيون في العصور الحديثة، والتي مكنتهم من الهيمنة على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي. وكانت وفاته في القاهرة سنة 1902م. من أهم أعماله كتاب "أم القرى"، و"كتاب طبائع الاستبداد". انظر،

<http://www.asharqalarabi.org.uk/center/rijal-kawakibi.htm>

(2) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى ص 155، 154، 158 "

(3) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى ص 168، 169، 170 "

(4) من اللافت للنظر أن الزعيم مصطفى كامل قد ذكر في كتابه "المسألة الشرقية": "إن ساسة بريطانيا قد أخرجوا مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان في وجه الدولة العلية. وإن مشروع جعل الخلافة الإسلامية تحت وصاية الانجليز وحمايتهم هو مشروع ابتكره الكثيرون من سياسي الانجليز منذ عهد بعيد فالمستر (بالانت) الانجليزي قد كتب كتاباً قبل احتلال مصر في هذا المعنى سماه (مستقبل الإسلام) ذكر فيه إن مركز الخلافة يجب أن يكون مكة وإن الخليفة في المستقبل يجب أن يكون رئيساً دينياً لا ملكاً دنيوياً". وهذا الأمر هو نفس ما نادي به الكواكبي فيما بعد في كتابه "أم القرى". انظر، مصطفى كامل: المسألة الشرقية، مطبعة الآداب بمصر، القاهرة، 1898م. ص 25، 28.

(5) اكتسب مفهوم الخلافة مغزى جديداً عند العثمانيين، وقد تمثل ذلك في تأمين طرق الحج، وحماية الأماكن المقدسة، والدفاع عن الإسلام والمسلمين، ووضعهم تحت الحماية، وامتزج ذلك بتقاليد الجهاد، ولم ير العثمانيون الخلافة في شكلها الوراثي، بل فهموها علي أنها حق طبيعي كما يدل عليه معناها. وقد حملت الدولة العثمانية مسؤولية قيادة العالم السني، وحمايته، ومسئولية الجهاد ضد الصوفييين في الشرق، وضد العالم المسيحي في الغرب. انظر، فريدون أمجن: التاريخ السياسي للدولة العثمانية، فصل في كتاب الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي، ترجمة صالح سعداوي، ارسیکا، استانبول، 1999م، ج1، ص 34، 35.

(6) حسن العطار: رسالة في تحقيق الخلافة الإسلامية ومناقب الخلافة العثمانية دراسة وتحقيق د. أحمد عبد الله نجم دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص، 58.

- (7) محمد عبده : الأعمال الكاملة، حققها وقدم لها د.محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج 1، ط1، 1972، 1م، ص113، 114
- (8) عبد المنعم الدسوقي الجميبي: عبد الله النديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية، دار الكتاب الجامعي، ط1، 1980 م. ص236.
- (9) مصطفى كامل: مرجع سابق، ص15
- (10) حدد الإمام الماوردي شروط الخلافة في سبعة شروط هي: " 1. العدالة، 2. العلم إلى الاجتهاد، 3. سلامة الحواس، 4. سلامة الأعضاء، 5. الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح، 6 الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو، 7. النسب وهو أن يكون الإمام من قريش". انظر، أبي الحسن الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط 1، 1960، ص 6. أما ابن خلدون فيري أن شروط الخلافة تنحصر في أربعة شروط فقط هي: "العلم، والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس مما يؤثر علي الرأي والعمل، واختلف في الشرط الخامس وهو النسب القرشي". عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار العودة، بيروت، 1981 م، ص152
- (11) محمد رشيد رضا: الخلافة، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1988م. ص27، 28.
- (12) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، مرجع سابق، ص164
- (13) نبيل عبد الحي رضوان: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1988م، ص44، 67
- (14) انظر، عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، مرجع سابق، ص121
- (15) محمود محمد شاكر: أباطيل وأسمار، مطبعة المدني، القاهرة، 1972م، ص 234.
- (16) Adanan Adıver: Osmanlı Türklerinde ilim, RemZı kitabevi, ist, 1970.S. 20
- (17) أحمد عبد الله نجم : المدرسة العثمانية منذ عهد الفاتح حتى وفاة القانوني، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 2005م، ص 158.
- (18) ليلى الصباغ: الحياة الفكرية في الولايات العربية خلال القرنين الأولين من الحكم العثماني، فصل في كتاب الدولة العثمانية تاريخ وحضارة مرجع سابق، ص 307، 308.
- (19) أحمد يشار أوجاق: الحياة الدينية والفكرية عند العثمانيين، فصل في كتاب الدولة العثمانية تاريخ وحضارة مرجع سابق، ص 232.
- (20) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ج3، صلى 1206.
- (21) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، مرجع سابق، ص167.

- (22) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1993م، ص86.
- (23) انظر، محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، مكتبة الآداب، القاهرة هديت، ص162.
- (24) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى مرجع سابق، ص 171.
- (25) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أول مسند الكوفيين، باب حديث بشر بن سحيم، حديث رقم 18189. "
- (26) انظر، أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م، ص237، 259.
- (27) نبيل عبد الحي رضوان: مرجع سابق، ص 448.
- (28) محمود شاعر: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1991م، ج8، ص39، 40. .